آخر الازياء الادبية في الغرب

الشرق وهبط بعض الاجانب في قرهم

بقلم فؤاد افرام البستاني

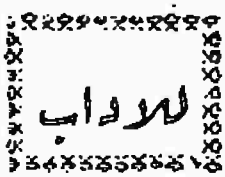

ازياء كما للاثواب ، وللاقلام اوبئة كما للاجسام ، تتناوبها بين آونة واخرى فتحتلّ مواضيع الانشاء ، وتخيم على عقليات بعض المؤلفين ، حتى لا تكاد ترى كاتباً الّا وفي اقواله تأثير هذا الوباء الجديد ، ولا كتاباً الّا وبين سطوره ميل نحو هذا الزيّ الحديث .

اما القرّاء — وهم كسائر الناس مسحورون بكل جديد غريب — فيتهافتون على هذه الكتب ، يتنازعون المواضيع الجديدة ، ويحشون ذاكراتهم بالاقوال الغريبة ، متفانين في التقاطها ، غُيُرًا على حفظها ، حتى يبرزوها في المجتمعات فيعرضوها بعجرها وبجرها ، متناظرين في اشياء كلما زادت جدّتها زاد جهلهم بها .

هذا ونحن لا نكاد نعرف اليوم زيًّا ادبيًّا اكثر انتشارًا في بعض الاوساط الغربية المؤثرة في اوساطنا ، ولا وباء كتابيًّا اعظم تأثيرًا في بعض مؤلّفي الغرب من ذوي الكتب الرائجة في بلادنا ، ولا سحرًا بالجديد الغريب اشدّ خطرًا عليهم وعلينا ، مما يسمّيه ادباء العصر «زيّ الشرق» ، و «وباء الشرق» ، و «سحر الشرق» !

الشرق !

موضوع كتب عديدة ونشرات متتابعة تغطي الرفوف الكثيرة في المكاتب ، بل هو فرع مستقلّ من آداب ادعياء الاستشراق من الغربيين في يومنا ، يبحث فيه كتّابهم عن «بلاد النور ، ومهبط الوحي ، ومهد الاديان .» وهم لا يتقيدون ،

في ابحاثهم ، بزمان ولا بمكان ، بل يشملون الشرق كله من ضفاف الغانج الى مصبّ النيل ؛ فيتكلمون عن عادات الشرقيين وعقليّاتهم المختلفة ، واديانهم المتباينة ، وآدابهم المتفرّقة ، وتجاراتهم العديدة ، وصناعاتهم الخاصّة . ثم يدفع بهم الهوَس الى المقابلة بين ماضي الشرق وحاضره ، وقياس المدنيات التي تقلّبت عليه . ولا يسهو بالهم عن ارسال تلك النظرة الاخيرة ، والثمينة في زعمهم ، في « ماذا يكون مستقبل الشرق ؟ » مع ابداء النصائح الجمّة التي « يجب على الغربي ان يتّبعها ليفهم الشرق » . على ان اكثر مؤلّفي هذه المجلّدات ، ان لم نقل كلهم ، اهملوا ما ينصحون به ، فضلوا الطرق التي « يجب على الغربي ان يتبعها ليفهم الشرق » ؛ وكان أبينهم ضلالاً اشدّهم مجازفة باعطاء النصائح . فهم لا يفهمون من الشرق بعض ما تعرف انت من الغرب ، وقد تعلمت في المدرسة تاريخه ، وجغرافيته ، وعادات اهله ، السنين الطوال ، فهل ترى من نفسك جرأة على الكتابة في ماضيه وحاضره ومستقبله ؟

نحن لا ننكر ما للمستشرقين الحقيقيين من فضل في اخراج تاريخنا وآدابنا من زوايا النسيان ومطاوي الاهمال الى محيط النور والمعرفة ، بل نحن اول من يثني على جهودهم القيّمة ، ويقرّ بفضلهم الجزيل . الّا اننا لا نرضى بان تُضيَّع تلك الجهود اذ تُعرض على مستوى واحد مع آثار الاستشراق المزعوم ، ولا نرضى بان يُغمط هذا الفضل اذ يجعل ارباب في محيط واحد مع جمهرة مدّعي هذا الاستشراق . فاذا قرّظنا فاننا نقرّظ اولئك العلماء الكرام ، واذا لمنا فاننا نلوم هؤلاء الادعياء الجهّال ، وعليهم يدور كلامنا :

يزور الكاتب منهم الشرق الاقصى فيقيم الشهر ، او بعض الشهر ، في احد ثغور الهند ؛ ويطالع ، بلغته الغربية طبعاً ، ما يقع تحت يده من ترجمات اقوال المتصوّفين واحاديث « الفقراء » ، فيرى فيها من الدعوة الى التجرّد والتزهّد ، والحثّ على التقشف والتضحية ، ما يظهر جديداً بالنسبة الى عقليّته المادّية ، فينادي بالاكتشاف ، ويدعو بل صوته الى السير على سبل الشرق القويمة ، واذا به يسوّد الصفحات العديدة في المقابلة بين الشرق « الروحاني » والغرب المادّي ، واذا بالمطابع تُخرج الكتب « النفيسة » في تحليل عقليّة

الشرق ، وتفهم طبائع الشرقيين . . .

ويأتي الآخر بلادنا — وهي ايضاً شرق ولا تميز بينها وبين الهند والصين مثلاً — فيقيم اسبوعاً في احد فنادق بيروت ، ثم يسافر الى دمشق بقطار الليل فيقضي فيها عدة ايام ، ثم يعود ، وهو لا يعرف عن بلادنا اكثر ما يعرفه تلجرنا عن بلاد السنغال ، بعد ان يقيم فيها شهراً . ومع ذلك فلا يتراجع امام وضع رواية « شرقية » تصوّر عادات الشرقيين على اختلاف العقائد والنزعات ، وتعرض بعض امثلة الشرقيين . فنطالع تلك الرواية ، واذا بعاداتنا تنحصر بكل ما يندى له جبين الأدب ، واذا بامثالنا تظهر غريبة بتلك الترجمة المضحكة . وليست العبرة في وضع تلك الرواية العجيبة ، بل في ان صاحبها يصبح ، في عرف نفسه وبعض قرائه ، من كبار المستشرقين . ويزيد اعتقاده رسوخاً طلبات اصحاب المطابع والمكاتب للكتب الشرقية اجابة لرغبة قرائهم المصابين بوباء الاستشراق ، فيروج الكاتب يحبر المقالات الكثيرة ، ويردّ صفحات المجلات المعتبرة في الكلام عن الشرق ، وعقليته ، وانتقاد سياسات حكّامه .

ويمتدّ وباء الاستشراق من الكاتب الى مقلديه ممن لم يعرفوا الشرق الا بواسطة ادلة كوك وبديكر ، فيأخذون بالتأليف ، ويخبطون ما تشاء لهم عقليتهم التي لن تفهم الشرق ما دامت تنظر اليه بنظارات الغرب .

ويزهو عصر الاستشراق فتربح شركات التسفير ارباحاً طائلة ، وتشحن الى بلادنا خلقاً كثيراً من رجال ونساء ، وكتّاب وسيّاح ، وصحفيين وضبّاط ، يختلفون نظراً واسلوباً ، ولكن يتفق اكثرهم بقلّة وجهلاً بامور الشرق . .

. . .

ولعلّ اعظم مدرجة خطأ هؤلاء القوم ، بعد ادّعائهم غير المحدود ، استناد النساء منهم الى شعورهنّ الحسّاس دون الاعتماد على العقل ، وميل جميعهم الى الاجمال ، واستعمالهم في كل الاحوال القياس الاستقرائي الناقص .

يدخل الغربي منهم احد المطاعم فيطلب قنينة وسكي مثلاً . فيتم له

صاحب المطعم ، ويجتهد كي يفهمه ، مع الاسف ، ان الصدفة حكمت بخلو محلّه من الوسكي ، او ان مطعمه ليس بحانة فتبيح له الحكومة بيع المسكرات . فيتمرمر الضيف ، ويقلب شفتيه مشفقاً هازئاً ، ويكتب في مفكرته : « في الشرق لا يعرفون الوسكي ! مسكينة هذه البلاد ، كم هي بعيدة عن المدنية ! »

يسمع الغربي ، في بلاده ، بخرائب تدمر ، وآثار بعلبك ، وحفريات بيبلوس ، فيدفعه وبا. الاستشراق الى الابحار وجهة بيروت ، وهو يتصوّر رؤية كلّ هذا على المرفأ ، حتى اذا لم يشاهد شيئاً من ذلك يئس من « سراب الشرق » ، وربما حذف من الوجود تدمر ، وبعلبك ، وبيبلوس .

يأتي الصحافي ليراسل احدى الجرائد الغربية عن الشرق ودوله ، فيتصل ببعض القينات الراقصات ، فتريه ما تشاء عن بلاد الشرق ، وتخبره بما يجول في مخيلتها من سيطرتها على بعض رجال الحكومة البارزين ، ومن مقدرتها على خرق القوانين . فيؤخذ الصحافي بكل هذا ويكتب ان حكومة البلد الفلاني بيد الراقصات يديرنها كيف شئن . ويكون البلاء شرًّا مما تقدم اذا كان ذلك الصحافي امرأة ، فتضيف الى ما سمعته توسيعات وتعليقات يحوكها شعورها النسائي الجذّاب . . .

ومن هذا النوع امور كثيرة يضيق المقام عن سردها ، وما كنا لنتعرّض لها ، لو لم نقرأها في الكتب ، فبرهنت عن قصر في النظر ، وسذاجة في عقلية تميل دائماً الى الاحكام المطلقة العامة ، دون تمييز ولا استثناء . واننا لا نزال نذكر بحثاً عن ارز لبنان شاقنا عنوانه ، فقرأناه في رحلة احد السيّاح « الى الشرق » ، واذا فيه ، بعد ديباجة طويلة في عقلية الشرقيين ومخيلتهم القوية :

« وللبنانيين ولع خاص بذكر الارز واحترام التقاليد المتعلقة به ، فهم يقولون ان سليمان الحكيم بنى الهيكل من خشبه ، ويردّدون ذلك متعزّين به عن انقراض الارز من بلادهم . وأني لاستغرب كل هذه الضجة حول الارز ! وما عسى ان يكون حكم من لا يعرفون لبنان ، اذا قلت لهم ، انا الذي زرت هذه الارض ، ان ليس في لبنان ارزة واحدة ! وان الارزة الوحيدة التي

يمكننا رؤيتها هي في حديقة النبات في باريس !»

فما رأي القارئ الكريم في هذا الحكم الصادر عن رجل رحل الى الشرق قصد درسه وفحصه ! وما قوله اذا عرف ان لهذا الكتاب طبعات تقرأ بامعان حتى في لبنان ، فيعجب المتفرنجون بما فيها من الدرس العميق ! وقد يكذبون انفسهم عما يرون في بلادهم كي يتشبثوا باحكام الغربيين . . . ويقف غيرهم على هذا الامر فيشفقون عليهم ، وعلى الكاتب ، باسمين . . .

وما قولكم في كاتبة غربية تهبط الشرق لمحة من الزمن ، فتتنقل في مدنه الكبيرة ، ثم ترجع عادة نفسها من كبار علماء المشرقيات ، فتكتب وتكتب ولا تمل ، عن الشرق ، وامراء الشرق ، وتاريخ الشرق ايضاً ، فتجد مستندات قيمة لم يعرفها احد من المؤرخين ، وترى في شاعر الفرس سعدي ضحية للصليبيين يمنعونه ارتياد مكتبة طرابلس الضخمة ! ويحكمون عليه السنين الطوال بالاشغال الشاقة في بناء قلعتهم ! ! !

. . .

وقس على ذلك اكثر ما كتبه ويكتبه زائرو الشرق حتى اصبحنا نقف موقف الريبة والشك ازاء كل كتاب جديد عن بلادنا . اللهم عدا ما يكتبه المستشرقون الحقيقيون ، ومن قضوا الشطر الاوفر من حياتهم العلمية ما بيننا ، فعرفوا ما نعرف ، وزادوا عليه تجردهم ، فحكموا بما لا نقدر عليه . فاكبرنا اختبارهم واعتبرنا احكامهم ، وسخرنا معنا من مدعي المعرفة بالشرق .